أقصوصة الرغبات المحبطة

بقلم صبري حافظ

ترددت كثيرا قبل ان افرد فصلا خاصا لهذا الاتجاه الاقصوصي (*) .. خاصة وانه لا يشكل واحدا من الاتجاهات البارزة في الاقصوصة على الصعيد المصري موضوع هذا الكتاب .. الا ان تنامي هذا التيار على الصعيد العربي بشكل واضح وسيطرته على عدد كبير من كتاب الاقصوصة في سوريا ولبنان وغيرهما من البلاد العربية اذكر منهم مطاع صفدي وسهيل ادريس وسعيد حورانية وزكريا تامر وحليم بركات وليلى بعلبكي وبعض أقاصيص عبد السلام العجيلي وفؤاد التكرلي وعبد الملك نوري ووليد اخلاصي وهاني الراهب وجان الكسان وديزي الامير وغادة السمان وجبرا ابراهيم جبرا وغيرهم . ثم ظهور الكثير من روافده وتعرجاته في الجيل التالي من كتاب الاقصوصة المصرية الذين سندرس بعض اعمالهم في الفصل الاخير من هذه الدراسة . خاصة وان ثمة ارهاصات عديدة في اعمال هذا الجيل من القصاصين الشبان تشي بأنه سيكون لهذا التيار الاقصوصي الناضج مكان بارز في لوحة الاقصوصة المصرية في السنوات القليلة القادمة .. ومن ثم كان لزاما علينا ان ندرس هنا اعمال هذا الكاتب الذي نعتقد انه اول من نثر البذور الجنينية لهذا الاتجاه في حقل الاقصوصة . هذا فضلا عن اثارته لعدد وفير من قضايا الاقصوصة المصرية التي سوف تظل برأسها من خلال تحليلنا النقدي لاعماله وتعرفنا على ملامح عالمه .

وقد فكرت كثيرا قبل اختيار هذا العنوان ، فقد كان بنيتي عندما استقر رأيي على تناول اعمال ادوار الخراط في هذه الدراسة ، باعتباره أنضج كتاب هذا التيار الاقصوصي واقدرهم على بلورة ملامحه ، ان اسمي هذا الفصل بالاقصوصة الوجودية ، خاصة وان ادوار الخراط قد وقد على مخطط هذه الدراسة في البداية باعتباره أبرز ممثلي تيار الاقصوصة الوجودية في مصر . صحيح ان استخدام كلمة تيار هنا فيها شيء من التجاوز ، فلم يشكل هذا الاتجاه بعد تيارا بالمعنى المألوف للكلمة . بل شكل فقط بذورا جنينية لتيار ربما ازدهر وربما مات قبل ان تكتمل له مقومات الميلاد . الا انني بعد تريث امام اعماله، وبعد قراءة مستأنية جديدة لها ، آثرت اختيار هذا العنوان .. أقصوصة الرغبات المحيطة . حتى لا يكون ثمة انفصال ولو جزئي بين العنوان ومحتوى الفصل الذي يقف دليلا عليه وشارة ، خاصة وقد ظهر لنا ان ادوار يتناقض أحيانا مع بعض فكريات هذه المدرسة الفلسفية .

وحتى يستطيع العنوان ان يشي ببعض ملامح هذا الاتجاه الذي توافق ميلاده مع بدايات تضخم البرجوازية المصرية وتناميها ومع ظهور انعكاساتها على شريحتها الصغرى التي يرهص ميلاد شرائحها الكبرى ببداية تعقدها وظهور توتراتها النفسية ورغباتها المحبطة . في عالم بدأ ميزان قوته في التأرجح منذ هذه اللحظة . وسيطر الجور على كثير من ملامحه وانطبع على قسماته . ذلك لان تنامي احدى شرائح البرجوازية وتدني شرائحها الاخرى ينسف عالم المساواة السحري الذي تعلقت بأذياله هذه الطبقة منذ لحظة الميلاد . ثم يبدأ في صياغة معالم لعنتها المرة الناجمة عن ذلك التناقض الكبير بين شمولية افكارها الاولى وبشاعة حاضرها الراهن ولا عدالته . وليس باستطاعتنا ان ننكر سيطرة هذه الافكار على كاتبنا بصورة او بأخرى . او اقتناعه بها على الصعيد العقلي واحساسه بوطأتها ـ باعتباره واحدا من ابناء الاقلية الدينية برغم أنفه ـ على الصعيد الحسي والاجتماعي . خاصة وقد اعتنق كاتبنا الفلسفة العلمية في واحدة من اخصب فترات حياته واكثرها اثرا في تكوينه .

وادوار الخراط ، ابرز كتاب هذا الاتجاه الاقصوصي ، كاتب مقل شحيح الانتاج ، فلم تنشر له سوى مجموعة أقاصيص واحدة (حيطان عالية) ١٩٥٨ واقصوصة (تحت الجامع) ١٩٦٣ ... صحيح انه كتب عددا كبيرا من الاقاصيص ، الا ان طبيعته الفنية والشخصية التي ستسفر لنا عن ملامحها بعد قليل قد ساهمت في حجب عدد كبير منها عن الظهور .. بل لقد كان في نيته ان يقدم لنا مجموعة اخرى (ساعات الكبرياء) اعلن لنا عنها على ظهر غلاف مجموعته الاولى ولكنه احجم عن نشر هذه المجموعة وما زال مترددا في نشرها حتى الآن . مكتفيا بترجماته المسرحية الوفيرة والمضمونة العواقب ، وببرامجه الاذاعية عن تاريخ المسرح او عن بعض الموضوعات او القضايا الادبية التي يقدمها له البرنامج الثاني باذاعة القاهرة . فهو غير قادر على هجرة الادب تماما بالرغم من وجله وتردده ازاء مسؤولية الخلق الفادحة .. يترك كثيرا من أقاصيصه غير كاملة ، وان اكملها فانه لا يرضى عنها ولا يدفع بها للنشر . لذلك قل ان نعثر له على قصة منشورة رديئة من الناحية الفنية او حافلة بالهنات . لانه يراجع مرارا . ويحبك الثوب على قدها المرسوم بمهارة وعناية فائقة . ولا غرو فهو يكتب قصة من نوع خاص . بل شديد الخصوصية الى الحد الذي يتعذر معه عليك ان تسلكه في ركاب تيار او اتجاه اقصوصي بعينه . كما انه لم يكد يشكل تيارا او اتجاها نستطيع ان نعثر على تعميقات له او تنويعات على نغمته لدى غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده .. اللهم سوى بعض اعمال علاء الديب وصبري موسى ومصطفى محمود . لكننا ما نلبث ان نعثر لدى العديد من شبان الجيل الاخير من كتاب الاقصوصة على اصداء خافتة او زاعقة لعالم ادوار الخراط الاقصوصي ولاسلوبه الفني . الا اننا لا نستطيع ان نجزم بتلمذة هؤلاء الكتاب لادوار او بتعميقهم لاتجاهه . وقبل ان نتعرف على ملامح الاقصوصة عند ادوار الخراط او على ابعاد عالمه الفني ، علينا ان نريق بعض الضوء على التكوين الخاص لشخصيته الذاتية والفنية وعلى العلامات التي حددت ابعاد هذا التكوين او ساهمت في تشكيل ملامحه .

ولد ادوار الخراط في ١٦ مارس عام ١٩٢٦ لاب مسيحي نازح الى الاسكندرية وراء التجارة من اعماق الصعيد في اخميم . مثقل بتجارب الحياة وصدماتها . كثير الكلام والحكمة فقد أمدته حياته منهما بزاد لا ينفد . فقد عمل في تسعينات القرن الماضي صرافا في أخميم . ثم ركب مد الحرب العالمية الاولى التجاري الى الفيوم ، تخلصا من عقم الزوجة الاولى ومن هموم الكساد والموت الذي ما لبث أن التهمها مخلفا الشجن . وتاجر في الفيوم بالبيض والبصل كأغلب اهل الصعيد. وكأغلب مسيحييه كان عميق الاستجابة لسوط الاقلية الذي يدفعه الى التمسك بصرامة بحبال الاخلاق والتقاليد . وقد أضافت اليه طبيعة المنكسر « المصاب » مذاقا فريدا أكسبه مع الانفتاح على العالم والولع بالحديث محبة الجميع . فما لبث أن زوج من الفيوم ونمت تجارته بها . وبدا ان الايام التي قست عليه في أخميم ستفتح له في الفيوم ذراعيها بحب وحنان . وجاء الولد لينثر في قلب هذه الايام المشرقة

(*) فصل من كتاب (حاضر الاقصوصة المصرية) .

البهجة والسعادة .. لكن ضوء الحياة الذي سطع في أفقه لحظة ما لبث ان خبا ثم انطفأ بموت الزوجة ثم الابن معا . فنزح الاب الى الاسكندرية مخلفا وراءه ارض الموت والهموم دونما رجعة ، مواصلا تجارته في الاسكندرية ، مرتفعا مع مدها هاويا مع جزرها من شاهق ابان ضائقة ١٩٢٠ المالية . ليعمل كاتبا لدى تاجر آخر ، ويتزوج في ظل الضائقة من جديد من بحراوية من الطرانة مركز دمنهور تنجب له ادوار عام ١٩٢٦ .. ويبدأ في العكوف على بذرة تجارية صغيرة ما تلبث ان تترعرع مع أوائل الثلاثينات ليجهز عليها الافلاس بالقرب من اواخرها فيعاود العمل من جديد لدى تاجر آخر .. ثم تدركه المنية عام ١٩٤٠ مخلفا وراءه ادوار وأمه وحيدين في هذا البلد الغريب بلا عائل او نصير .

وسط تموجات هذا الوضع الاقتصادي المتأرجح بين الثراء وسد الرمق ولد ادوار وعاش سنوات طفولته الاولى ، في ظل رداء صارم من المناخ الديني الذي يرى في مد الثراء وانحساره نوعا من الحكمة الالهية الموجهة لاقدار البشر . والذي يرغب ـ والحال هكذا ـ في استرضاء هذه الحكمة والفوز بعطاياها . وهناك حادثة صغيرة ساهمت مع هذا الجو المتوتر المشحون بالطقوس في صوغ ابعاد شخصية ادوار منذ طفولته . فقد نذر ابوه غب وفاة الابن الاول ، الا يعمد ادوار الا في دير أخميم الشهير وفي حفل ديني كبير . الا ان الظروف السياسية ايامها قد حالت دون هذه الرغبة والتحقق عقب ولادة ادوار مباشرة ، ثم ساهمت الضائقة الاقتصادية بعد ذلك في تأجيلها ، فلم يعمد ادوار حتى السابعة من عمره ... وقد تركت هذه المسألة ظلالها على طفولته العاقلة الخالية من الطفولة . فقد القى في روعه أن مسيحيته لن تكتمل قبل التعميد .. وان موته قبل هذا لن يدثر بغفران المسيحية الكبير ، ومن ثم نما في اغواره رعب هائل من عبث الطفولة المنطلق ومن الخطيئة في شتى صورها وفي مختلف تدرجاتها .. فلم تشهد طفولته مرح الطفولة الساذج ولا العابها وأكاذيبها الحلوة الصغيرة . وظل في انتظار هذا التعميد طويلا .. فلما كان ، انحفرت كافة تفاصيله في وجدانه وذاكرته حتى اليوم . وترك هذا (الجو) في أعماقه عشرات الحكايا والقى بظلاله على حياة ادوار بعدها .. بل ما زال حتى اليوم يتوق الى كتابة هذه التجربة العامرة بالطقوس وبالبهجة وبنوع من السمو الروحي الفريد .. كما تركت أطياف عملية التعميد في الدير الاخميمي العتيق ظلالها على الاطار الخارجي الذي تمت فيه قصته (ابونا توما) .

قضى ادوار طفولته تحت وطأة هذا المناخ الديني الخانق الذي انعكس على شخصيته صبيا ، والذي نماه التحاقه منذ الرابعة باحدى المدارس المسيحية .. فنجد ادوار في المدرستين الابتدائية والثانوية تلميذا منطويا عكوفا على دروسه ، مؤثرا الوحدة خوف رفقة السوء ، مواصلا الاستذكار باقصى طاقته حتى يرضى الجميع .. الاسرة والمدرسة والرب على السواء .. قاضيا بسبب هذا الستار من العزلة الذاتية والاسرية ، والذي ما زالت اشباحه تحوم حول رأسه حتى اليوم ، اغلب اجازاته الصيفية في القراءة ، التي تدرجت من القصص التوراتي والكلم الطيب في سنوات المدرسة الابتدائية حتى وصلت مع المرحلة الثانوية الى الالتهام الشره لروايات الجيب ولمغامرات ارسين لوبين الساحرة ثم عرجت قرب نهايتها على تراث سلامة موسى العقلي وكل استدعاءاته العلمية كدارون وشو وغيرهما مرورا بالقصص الانساني الجاد .. فلم يعرف في يفاعته قراءة الروايات البوليسية او الغرامية الرخيصة الا لفترة وجيزة . فقد انعكست عزلته وجديته ـ حتى ـ على قراءاته الشخصية ، فنراه يأتي في هذه السنوات ايضا على القاموسين العربي والانجليزي حفظا ـ هكذا روى لي ـ وعلى اغلب ما في مكتبة البلدية بالاسكندرية من كتب مؤلفة او مترجمة . واستمرت العزلة والقراءة معه . فهو يذكر ان اول صداقة زمالية له لم تولد الا بعد ان تجاوز السادسة عشرة ، وبالكاد عندما حصل على التوجيهية عام ١٩٤٢ .

وكان ابوه قد مات قبل ذلك بسنتين ، دون ان يترك لهما شيئا .. فواصلا هو ووالدته ، في ظل ظروف اقسى من تلك التي تظل علينا من القصص الواقعية الساذجة ، حياتهما على المدخرات البسيطة والاثاث المنزلي الذي اخذ يذوب في وهج الفاقة قطعة اثر اخرى .. فما كاد يحصل على التوجيهية حتى كان لزاما عليه ان يعثر على عمل يسد به رمقه والوالدة التي عاشت بطولتها الصغيرة بأمانة واقتدار طوال العامين الاخيرين من دراسته الثانوية . فعمل ادوار في مخازن الانجليز بالقباري في اواخر الحرب عام ١٩٤٣ .. والتحق في نفس العام بكلية الحقوق برغم ولعه بالآداب ارضاء لرغبة والده في مثواه الاخير . فيا لها من سيطرة حتى بعد الموت على الابن الوحيد . وكان دخله من وظيفته الكتابية الصغيرة ضئيلا ، فكان يلجأ الى اعطاء دروس خصوصية لبعض التلاميذ في المساء ، بينما يعكف في الظهيرة عقب خروجه من المخازن على نسخ المحاضرات ، ثم يسهر بالليل لمذاكرتها .. ويخطف ساعات قليلة من النوم ليواصل الدوران من جديد في فلك هذه الدائرة الرهيبة .. والى جانب ذلك لم ينس قراءاته .. ولا ولعه بالآداب الذي دفعه الى دراسة مناهج قسمي الفلسفة والادب الانجليزي بها من الخارج ارضاء لرغبته وهواه .. واستمر ينجز كل هذه الاشياء حتى تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٤٦ . فما ان تخرج حتى تخلص من هذه الدائرة المزدحمة الرهيبة . وعمل بالبنك الاهلي بالاسكندرية مع مطلع عام ١٩٤٧ في الوقت الذي لم يتجاوز عدد موظفيه المصريين الثلاثة ، وكان جل موظفيه من الاجانب .

وكان ادوار قد تخلص مع سنوات الدوامة الرهيبة من آثار الكثير من الفترة الماضية .. تخفف من صرامة الكهنوت الديني على يد افكار سلامة موسى العلمية ورؤيته الاصلاحية للحياة . وانطلق يعدو في قفار عالم القراءة الفسيح دونما حدود .. يروي شبق روحه النهمة من مناهل الآداب الروسية والفربية والعربية . ثم تعرف مع عام ١٩٤٥ على مجموعة من تروتسكي الماركسية بالاسكندرية . ووجدت افكارهم الثائرة بلا تزمت هوى في نفس ادوار الخارج لتوه من قوقعة التزمت الرهيبة . الراغب في تجاوز اسوار وحدته الذاتية وعزلته الدينية التي ظلت تطارده مجتمعيا برغم تخلصه على ايدي سلامة موسى من اسارها . وفتحت هذه الافكار الجديدة عينيه على عالم واسع ، حافل بالرؤى والثراء .. واستجابت النفس لاصداء هذه الافكار وانطلقت في ركابها . فكان ان اعتقل في ١٥ مايو عام ١٩٤٨ مع موجة الارهاب الكبيرة التي شملت وجه مصر ابان حكم النقراشي ومع أعلان الحرب في فلسطين الضائعة ... وفي المعتقل أسفر له عالم الافكار السحرية عن وجهه الحقيقي المليء بالطفح والتمزقات . وعن الصراعات الشخصية التافهة تأكل وقت (المناضلين) وتستحوذ على اهتمامهم . فكان ان فقد ايمانه بهذه الافكار لهذا السبب ، كما يقول ، ولعملاقية الخوف امام مرارة التجربة ووحشيتها ـ كما اعتقد من تلك الظلال التي تركتها هذه التجربة في نفسه وعلى قسمات عالمه الفني.. فلما خرج من المعتقل في فبراير ١٩٥٠ كان فاقدا الايمان للمرة الثانية .. ضائعا بلا يقين.. مواصلا في ظل حالة من التدهور الكامل واليأس المطبق قراءاته النهمة التي تعرف خلالها على كنوز الادب الامريكي واثرى عطاء المدرسة الوجودية الفرنسية في الادب ، واستكمل عبرها بناءه المعرفي ، متعرفا لاول مرة على أهم كتاب الرواية المصرية نجيب محفوظ .. وكان خلال هذه الفترة قد عمل في شركة التأمين الاهلية بالاسكندرية عقب خروجه من المعتقل وحتى أبريل عام ١٩٥٥ ، ثم استقال منها بعدما توفر في يديه مدخر مناسب من المال ليمنح نفسه تفرغا شخصيا للادب . وكتب خلال فترة التفرغ هذه أغلب أقاصيص (حيطان عالية) .. واعاد كتابة الاقاصيص القديمة منها . لكن المال المدخر سرعان ما ذاب وتلاشى ، فحضر الى القاهرة في عام ١٩٥٦ وعمل مترجما بسفارة رومانيا بها . وادخر من جديد ، وتزوج ، وطبع مجموعته القصصية على نفقته الخاصة ، ثم انتقل عام ١٩٥٩ للعمل بالمؤتمر الاسيوي الافريقي ، وما زال يعمل به حتى الان .

هذه دفقة سريعة من الضوء على الخطوط العريضة لحياة ادوار .. لا تساعدنا فقط في تفهم شخصيته الفنيـــة ودوافعه الابداعية . ولكنها ستريق الضوء على كافة اعماله القصصية وتفسر لنا مـا غمض منها ومن اتجاهه الفني الذي ساهمت كل هذه الخطوط فـــي بلورته وتشكيل ملامحه . ولن نسرد هنا انعكاسات هـــذه الخطوط المتشابكة على قصصه وعلى عالمه الفني ، ولكننا سنستضيء بها في تناولنا لهذه الاعمال .. قد نذكر بعض آثار هذه الجزئيات في حينها تارة ، وقـــد نكتفي تارة اخرى بالنتيجة وحدها عندما تنطق هـــذه النتيجة ضمنيا بدور هذه الجزئيات في صياغتها وتشكيلها .. والحقيقة ان عالم ادوار الخراط الاقصوصي وثيق الارتباط بحياته الشخصية وبتموجات هـــذه الحياة وتعرجاتها . الى الحد الذي نجد معه ان هذه القصص ، ربمـــا بسبب شحها ، ليست أعمالا فنية مستقلة عن شخصية المبدع وحياته ، بقدر ما هي تنفيس فني عما يجيش في اعماقه من أحاسيس ، وانعكاس لما يدور في عقله من أفكار وهموم .. الدليل على هـــذا أننـــا نلمس الانعكاس الواضح لافكار المراهقة واحاسيسها منطبعا علـــى الاقاصيص التي كتبت في بداية المرحلة الجامعية (الشيخ عيسى) و (طلقة نار) و (في ظهر يوم حار) .. بينما يتسلط القلـــق واليـــأس والاحباط والتدهور العقلي على الاقاصيص التي كتبت ابان فترة التفرغ الشخصية التي أشرنا اليها من قبل ، كما في (الاوركسترا) و (في داخل السور) و (حيطان عالية) و (محطة السكة الحديد) .. كمـــا نلمس اصداء خافتة تارة وزاعقة احيانا لشخصية الكاتب وحياته في اغلب ابطال هذه القصص وفي اغلب احداثها .. وقد يقال انه لا بد للكاتب من التحويم الدائم بالقرب من التجارب والحيوات التـــي خاضها وعاش ابعادها ليتحقق لعمله الصدق على الصعيدين الفني والشعوري .. الا ان مـــا يفعله ادوار يتجاوز بكثير ابعاد هذه المقولة ، اذ يمتد نطـــاق رؤيته للحدث والشخصية الى حد اعادة صياغة أغلب جزئياتهما من جديد . واعادة تركيبهما وفقا لفكرته المسبقة عن العالـــم والاشياء . وقبل ان نتناول هذه الاقاصيص نقديا علينا ان نتعرف بداءة على ملامح عالـــم ادوار الخراط الاقصوصي وعلى الجو الفني العام الذي اسفرت عبـــره هذه الملامح عن نفسها .

ومن الوهلة الاولى يفجأنا اكتظاظ هذا العالم بالنماذج المكبوتـــة المحبطة الرغبات ، والتي تستشعر الخوف بشكل شبه مرضي من عشرات الاشياء العادية والبسيطة ، والتي تمنح تصوراتها تلـــك معظم الاحداث الحياتية امتدادات عديدة حافلة بالرؤى والدلالات ... فبطل قصاصنا الملحاح هو ذلك الانسان الملول دائما ، الضيق بحياته غالبا .. وهـــو مترفع عن الانخراط في خضم الحياة اليومية مؤثـــرا الجلوس علـــى شواطئها . يدخن تبغ تأملاته بتلذذ طوال الامسيات الرتيبة .. لهـــذا نجد أغلب ابطاله ـ توافقا مع هذه الرؤية أو استجابة لها لا أدري ـ من المثقفين .. طالب طب مفرم بالانطلاق الى قلب الحياة ولوع بالتعرف على مختلف وجوهها (طلقة نار) او طالب مثقف كثير القراءة عـــارم الرغبة في الانتقام لنفسه من عالم المرأة الحافل بالاسرار . او امـــرأة نستطيع ان نقول انها شديدة الثقافة فـــي حدود عالمها ، بمعنى انهـــا عميقة الادراك لوضعيتها في هذا العالم ولابعاد مأساتها فيه (في ظهر يوم حار) او موظف مغلق على نفسه مدثر بالالغاز يتلقى دروسا ليليـــة في الفرنسية بالليسيه (قصة موعد) او قاض متقاعد بعد حياة حافلة بالملل والخبرات القضائية المكرورة والحرمان الجنسي ، لكتابة مؤلف مبهر في القانون وعميق . او موظف بمكتبة يزدحم عالمهـــا بالحروف والكلمات وتدفعها تطلعاتها كالفراشات الـــى مدارج اللهيب (حكاية صغيرة في الليل) او محضر طبيعة في احدى المدارس الثانوية وطالب بقسم الفلسفة بكلية الآداب يموت في هوى الثقافة الغربية ويتيه فـــي فيافيها (الاوركسترا) او مدرسة سابقة مفرمـــة بقـــراءة الروايات العاطفية (مغامرة غرامية) أو قديس مترهب شديـــد الثقافة ، نساخ لاغلب الكتب اللاهوتية والاناجيل (ابونا توما) .. واغلب هذه الانماط الانسانية المقهورة قريبة من حياة ادوار الشخصية او من مدار حركتـــه كما ذكرت . وهي انماط ملولة دائما .. يقبع كل منها برغـــم انخراطه الظاهري في الحياة ـ في صقيع انفراده الموحش ، وفي وهاد عزلتـــه التي تقيم حولها الذاتية أسوارا عالية وسميكة . فانخراط ابطاله فـــي الحياة ليس في الواقع الا احد وجوه عزلتهم عنها وخصامهم معهـــا . وهو غير ذلك الاندماج الطبيعي في الحياة والتآلف معها او الصراع مع بعض جزئياتها .. لذلك ليس غريبا الا نعثر على واحد من أبطال قصصه قد نزل البحر ابدا ـ واذا حدث هذا فانه يموت كمـــا في (امـــام البحر) ـ بالرغم من ربوص البحر على تخوم اغلب احداث قصصه . ليس كديكور مكمل الملامح المنظر السكندري الاثير لديه .. ولكن كعالم هائل نابض بحياة دافقة لا محدودة . كتلخيص رمـــزي عميق لعالـــم التجربة الانسانية الحافل . والذي يبـــدو ان الكاتب واغلب شخوص عالمه يعتنقون حيالها تلك المقولة الانجليلية الشهيرة التي ترددت كثيرا في احدى قصصه صارخة (لا تدخلنا في التجربة) .. وبالتالي يظـــل هذا العملاق الرمزي الكبير حبيس أسوار هـــذه المقولة الانجيلية ، عاجزا عن ان يهب عالمه القصصي ذلك الثراء المبهر الذي وشح به عالم ميلفيل او اونيل او همنجواي .

وهذا الانسان المثقف يعيش في دهشة دائمة . فثقافته لا تفـــك له طلاسم العالم ولكنها تزيده تعقيدا . لذا فهو في دهشة من وجوده ، ومن حضور الاشياء الكثيف من حوله . ومن ذوبان الحدود الفاصلة بين عالم الحلم والواقع في داخله . ومن ذلك التناقض الدائم بين العالم الواقعي .. عالم الوقائع والمحسوسات وفكرته عن هذا العالم .. انـــه انسان غير مبرر وسط أشياء غير مبررة . يؤمن بأنه ليس ثمة ـ كمـــا يقول باسكال ـ ما يبرر الحياة اليومية سواء أكانت زيفا ونفاقا او وعيا ونقدا .. وهذا ما يورثه تلك الدهشة الدائمة الحيـــة ابدا الطازجـــة دوما . والتي تطل برأسها خلال السرد القصصي عبر الالحاح المتزايـــد على استعمال الافعال المبنية للمجهول والتي يعرب تزايدها عن حضورها غير المبرر وغير المتوقع في آن . وعن حدوث الكثير من الاشياء خارج نطاق تصور البطل او فهمه لها . ومن هذه الدهشة المتزايدة دوما يرتوي احساس أبطاله الخافت باللامعنى .. واللامعنى ليس فقط في داخلهم ولكنه ايضا ـ حسب تعبير عزيز علي كامو ـ في داخلهم .. وهـــذه المقولة الوجودية تستمد صحة شقيها مـــن اقامة تعارض وهمي بيـــن الانسان الفرد والاطار الاجتماعي الذي يعيش فيه ، حيث يبهظ كاهلـــه مجرد وجود الآخرين .

والحقيقة ان عالم ادوار الاقصوصي يعبر عن ذلك الصراع القديم الذي تحدث عنه الادب على مر العصور . والذي يطل بصورة اكثـــر وضوحا وسفورا من اعمـــال الوجوديين الفرنسيين الادبية وخاصـــة كتابات كامو .. ذلك الصراع بين الحضارة والانسان . بين المواضعات الاجتماعية والذاتية الفردية ، وهـــو الصراع الذي تتجسد عبـــره استمرارية العلاقة بين الحساسية الاجتماعية والحساسية الفرديـــة . وليس مهما ان نقول بتعبيره عن هذا الصراع ، فقـــد قبع ذلك الصراع في خلفية اغلب الاعمال الادبية على مر العصور . لكن المهم هو ان نحدد موقفه من هذا الصراع ورؤيته له ونوعية المفهوم الذي يضعه في هـــذا الجانب أو ذاك من جوانب هذا الصراع الابدي القديم .. ومـــن البداية يمكننا ان نقول ان بطل ادوار ليس تلخيصا لهمـــوم جيل بأكمله . ولا هو محاولة لاسر مطامحه فـــي تجاوز لعقبات المادية وتخطـــي اسوار المواضعات الاجتماعية الجائرة . ولكنه صرخة تمجيد زاعقة لكافة مباءات الفردية والانعزالية والانغلاق عن كل الاحداث والقيم المجتمعية .. انـــه (غريب) كامو المتحلل الداهش المعتز بذاتيته . والذي يصم العالـــم بالتفاهة ، برغم انه يعيش بحق في قلب هذه التفاهة المجسمة دون ان يبذل ادنى جهد لتنظيم فوضاها او لاخضاعها لارادته .. ومن هنـــا نجد ان بطله خائر العزيمة ، فاقد الارادة ، دائم التردد .. لا يستطيع الاتيان بأي فعل ابدا .. وان حدث ذلك فانه يتـــم خلال انسياقه في تيـــار الاحداث التي يفلح تيارها العارم احيانا فـــي ان يجرف كافة ترددات ويلتهمها . صحيح ان هذه الجزئية من سلوك بطله تتشح على الصعيد

الفكري فحسب ـ ولا أقول الواقعي او التجسيدي ـ بغلالة رقيقة من تلك الفرضية الوجودية التي ترى ان الحياة التي لا تسعى ، على الصعيد الارضي لا السماوي ، الى تحقيق ذاتها ستكون احتمالا محضا . والتي يظهر اثر اعتناقه العقلي لها على عالمه الفني ، بل وعلى التخطيط البنائي للاقصوصة عنده . فنكاد نستشعر في بعض الاحيان أثرا واهنا لتحكمها في مصير العديد من شخصياته وتوجيهها لهم .. فنجد مثلا ان طموح بطل (طلقة نار) الى تحقيق مشروعه الانساني هو الذي يقوده في النهاية الى اطلاق العيار الناري في آخر القصة . وان رغبة بطله (في ظهر يوم حار) في تأمين مصيرها الحياتي هو الذي يقودها الى الخطيئة فأن توق (ابونا توما) لتبرير عقلي واضح لعزلته ولهذه الاطياف الخرافية التي تحلق من حوله هو الذي يقوده في النهاية الى القتل ويقف به على حافة الجنون . الا ان هذا الوشاح المصبوغ ببعض الارادية والذي تسربلت به أقاصيص المرحلة الاولى ما يلبث ان ينحسر تماما عن ابطال اقاصيص المرحلة الثانية ، ليتركهم عراة يتخبطون في دياجير التردد ويتيهون في ضبابيته ، ويجسمون اللامعنى الوجودي بطريقة قسرية زاعقة .

وعالم ادوار الخراط عالم ليلي .. لا نعثر فيه ابدا على هذه الاشياء النهارية ، كالعمل والشمس والعواطف والاحاسيس الواضحة .. ولا يعني هذا غياب العمل او الشمس او العواطف او الاحاسيس الواضحة من افق ابطاله تماما ، فلهذه الاشياء وجود في حياتهم . ولكنه وجود ثانوي لا قيمة له . واذا استحال هذا الوجود الثانوي الى وجود حقيقي مؤثر وفعال وجوهري فانه يأخذ سمة كابوسية رهيبة كوجود الشمس الدائرة خارج الغرفة كالكابوس في (في ظهر يوم حار) والتي تكاد أن تكون الشمس الوحيدة التي تطل علينا في عالم ادوار بأكمله . وبقدر غياب الشمس والطبيعة الزاهية وكل الاشياء النهارية من أفق هذا العالم نحس باكتظاظة بكافة الجزئيات الليلية . المناظر الكابية والالوان الداكنة . والاحاسيس والعواطف الغامضة الليلية الخافتة والضارية معا . لذلك فاننا نعثر في عالمه هياج البحر الوحشي في الليل . وعلى عشرات الثريات التي لا تفلح ابدا في طرد العتمة التي تعشش في أعماق شخصياته ، وعلى حنين ابطاله الجارف الى الضوء او الى ما يعادل هذا الضوء على الصعيد الحياتي ، وعلى انسحاقهم تحت وطأة الضوء أو الشمس الباهرة ولجوئهم الدائم الى الاماكن المغلقة كنوع من الحنين الهروبي للعودة الى الرحم والى افياء ما قبل الطفولة ، وعلى نوع من تهربهم الدائم من المسؤوليات والهموم على كافة مستويات هذه المسؤوليات والهموم .. انه عالم ليلي بكل معنى الكلمة ، لا تزدهر فيه سوى مشاعر العكوف على الذات وهدهدتها، ولا تنمو فيه سوى أحاسيس الخوف الليلية . فكل شيء جوهري لا يتم في هذا العالم الا ليلا ، حيث تتشح الذاتية بملفحة الليل السوداء وتتمطى تحت استاره الكثيفة .

وبرغم احساس بطل كاتبنا بفرديته الشديدة تلك ، فانه يفتقد ما لدى الوجودي السارتري من احساس عميق بتجاوز ذاته الفردية والتوحد معها في آن ، وبالتزامه الصارم أزاء نفسه والعالم ، الى الحد الذي يكاد يصرخ فيه مع سارتر « عندما اختار لنفسي فانني اختار للبشرية جمعاء » فهو نموذجها ونمطها ووعيها معا . وعليه لذلك مسؤولية فادحة ازاءها . انه يفتقر الى هذا الجانب الايجابي في الوجودية حيث يعانق الوعي الارادة . لانه فاقد للارادة اصلا كما ذكرنا .. وبرغم ذكر الاختيار باللفظ في كثير من القصص ، فانه لا يتعدى ابدا حدود هذه الاشارات اللفظية ولا يتجاوزها الى المضمون الحقيقي للاختيار باعتباره وعيا وارادة معا .. صحيح ان كاتبا يلتقي مع الوجودية في فكرته المثالية ـ فلسفيا ـ عن العالم . وفي تشربه لكثير من روافدها واعتناقه لبعض وجهات نظرها الجزئية في كثير من الموضوعات . غير انه يعود فيفترق عنها من جديد ازاء قيود واقع لم تسفر مواضعاته الاجتماعية المتخلفة نسبيا عن موضوعات مترفة لوعي يعيش في صراع دائم ضد التشيؤ بالآخرين ، ليقتطف جذاذات من البرجماتية والبرجسونية ومن الوضعية المنطقية احيانا .. والغريب انه يذهب في بعض الاحيان ، برغم المنطلق الوجودي الذي يبدأ منه على الصعيد العقلي ، الى حد التعارض مع بعض فكريات الوجودية الاساسية .. فالتركيز مثلا على الكينونة الانسانية التي يتحقق بها المشروع الانساني في اكمل صوره ، يساهم في احباط عوامل الفشل المحتملة ازاء هذا المشروع الانساني ، برفضه طرح الغايات التي تتطلع اليها الصبوات الانسانية بشكل اطلاقي . و بمعنى آخر برفضه ان تصبح أي غاية جزئية غاية مطلقة ، وبنظرة الى هذه الغايات من خلال ارتباطها بالحرية التي تشرعها وبالموقف الاجمالي الذي انبثقت خلاله . فالانسان الاصيل كما ترى سيمون دو بفوار لن يقبل الاعتراف بأي مطلق اجنبي ، انه يتمرد على كل المطلقات .. هذه مثلا واحدة من فكريات الوجودية الاساسية التي يتناقض معها ادوار . صحيح ان النظرة المتسرعة الى اعماله قد يلوح لها انه متوافق مع هذه الفكرية لاحتفاله بالتمرد على بعض المطلقات ، كالاب في (طلقة نار) و (الشيخ عيسى) او القيم الاجتماعية كما (في داخل السور) .. الا ان تمرده في الحقيقة على هذه المطلقات لا يعني رغبته في تجاوزها ، ولكنه يتحقق باعتباره غاية الشخصية المطلقة والوحيدة .. فاذا جردنا هنية مثلا (بطلة في داخل السور) من تمردها على القيم فانها تستحيل الى مجرد هيكل شبحي لا يعني شيئا . فالتمرد على القيمة المجتمعية ليس غايتها المطلقة فحسب ، ولكنه جوهر شخصيتها أيضا .. بينما يأخذ التمرد الوجودي طابعا مغايرا لانه جزء من فوق الشخصية الانسانية الى تحقيق ماهيتها وليس هو هذه الماهية او حتى غاية الشخصية او جوهرها .

وليست هذه فكرته الوحيدة التي يتناقض فيها مع الوجودية بل ثمة افكار اخرى .. منها مثلا رؤيته للاشياء وتناقضها مع الفكرة الوجودية القائلة بتمتع الاشياء وحدها بالحضور في ذاتها ، لسبق ماهيتها على وجودها . ففي عالم ادوار لا نجد ابدا ان الاشياء موجودة في ذاتها ولكنها موجودة لذواتنا نحن . ومن ثم فليس هناك شيء واحد مقدم في أقاصيصه لذاته ابدا ، ولكن كل الاشياء والمحسوسات مقدمة عبر عين البطل وعقله ، ومضافا اليها رؤيته لها واحساسه بها . ذلك لان فهم بطله لنفسه يرتوي من تلك الفرضية البرجوازية التي يرى كل فرد عبرها انه مركز الكون وان كل الاشياء تنظم دورانها حوله بما يتواءم مع مصالحه الذاتية وعظمته الفردية !.. ولا يفلت عند ادوار من هذه الرؤية الضيقة الافق للاشياء سوى البحر . ربما لان البحر في أقاصيصه كما سبق ان ذكرت ليس شيئا ، ولكنه عالم كامل مشحون بالرؤى والدلالات ، عامر بالخرافات والحيوات الكاملة . انه اسطورة رمزية كبيرة ، وان كانت خامدة الانفاس مشلولة وغير مستفاد بها كما ذكرت .

هذا ومن الظواهر الخادعة ايضا في اعمال هذا القصاص ، انه يحاول من خلال استقصاءاته المستمرة لابعاد الجزئيات ، ان يوحي اليك بأنه يترك الفكر تماما ليحتفي كلية بالاحساس ، مركزا على ما يسميه كامو بحس اللحظة الحاضرة ، مكتشفا الحاضر المحسوس ومتحسسا غناه . الا ان اهتمام ادوار الشديد بهذا الجانب الحسي من الحياة ليس في جوهره الا اهتماما متزايدا بالجانب الفكري منها . فتركيزه على حس تلاحق اللحظات وتعاقبها واقتناصه له . لا يتم الا عبر مخططات عقلية خاضعة لسيميترية جامدة تجهز صرامتها على الجانب الانساني كلية من الشخصية ، بل الحسي . ومن هذه البؤرة ترتوي رؤيته للغة . فبرغم الحاحه على استنفاد كل ما في طاقات الكلمة من قدرة على الافضاء ، ورغبته في تجسيد حضور الصور والاحاسيس بالكلمات عبر تركيزه المتزايد على الصفات المتتابعة التي تصل في بعض الاحيان الى اربع صفات متلاصقة ، وفي احيان كثيرة جدا الى ثلاث . فلا تكاد تخلو صفحة واحدة من صفات ثلاث متلاحقة . لكن هذا لا يتم لديه خلال اعلاء شأن الجانب الحسي من الحياة ورغبة منه في ان تتدفق الكلمات بالحركة ، كما يحدث خلال تجارب يحيي حقي اللغوية الرائعة

التي افضنا الحديث عنها في الفصل الثاني من هذه الدراسة . ولكنه يتم عبر التركيز على الجوانب التجريدية في اللغة ، وبالاسلوب المعملي الذي تحس خلاله وكأن الكلمات معقمة تعقيما هتلريا لا علاج له ، وعاجزة عن الاخصاب ، وغير قادرة على النفاذ الى اعماق القارىء او الحياة في داخله . فاللغة عنده برغم احتفائها الشديد بالخصوصيات واهتمامها بوصف كل شيء باكثر من صفة واحدة ـ ثلاث غالبا واربع احيانا ـ تقدم لنا في النهاية الكلي وليس الجزئي . فالكليات والتجريدات هما هدفها النهائي برغم تسكعاتها الطويلة على ارصفة الجزئيات . ومن هنا يرتوي تحويمها المستمر بالقرب من الصياغة الانجيلية ومن التراكيب اللغوية والحس التوراتي في بناء الصورة والحكاية . والبلاغة المرتوية من الركاكة في بعض الاحيان ، المتوافقة مع مقتضى الحركة او الشخصية او الحدث ، والتي تخفي وراء وشاحها دائما تلك المقولات الكلية والتجريدات الفلسفية التي تريد الافضاء بها .. ومن هنا فانها لا تستطيع تجاوز الجانب العقلاني ، والتغلغل الى الاعماق الشعورية للمتلقي الذي لا يستطيع بحال ان يكون احساسا مع احدى شرائح قصصه او ابطالها مهما كانت نوعية هذا الاحساس .

ومن هنا ندلف الى طبيعة فهم ادوار لدور الفنان ولمهمته . فالفنان في نظره هو ذلك المراقب الحاذق الدقيق الملاحظة المطالب دوما ـ دون ان يكون ثمة طلب مباشر غالبا ـ بأن يحقق وجوده الكامل وحضوره الدائم بالانفصال عن الواقع لا بالاندماج فيه . فهذا الانفصال والتعالي هو الذي يتيح له التحكم المطلق في كافة ملامحه ، والبناء الهندسي المحكم لشتى جزئياته . فلا يفلت شيء من رقابته وسيطرته . ولا يطفو على سطح القصة أي حدث او شخص او انفعال دون ان يكون ثمة تخطيط مسبق وراءه وهدف محدد له . فكل التحركات مدروسة ومقاسة . وكل الانفعالات معمول حسابها ... وحتى أسماء الاشخاص منتقاة بعناية فائقة تجعلها تفيض بالدلالات . فجابر لا بد ان يجبر حياة نجية التي توشك أن تتحطم . وأنيس لا بد ان يكون محبوبا وانيسا وان يعاني في النهاية من الوحشة المدمرة التي تتبدى حدتها من خلال تناقضها مع اسمه وماضيه . وهدى لا بد ان تضيء منارات الهداية في حياة الآخرين وان تتمرغ هي في التعاسة والضلال . اما هنية فلا بد ان يشي اسمها بتعاستها المرتقبة . بنفس الدرجة التي ينبيء بها اسم مخلوف عن حتمية أن يخلفه شخص ما في الشيء الوحيد الذي يتمسك به . ويمكننا ان نعدد بنفس الاسلوب جميع اسماء شخصيات اقاصيصه . حيث تحمل الاسماء في داخلها ماهية الشخصية وملامحها وارهاصات مستقبلها ، مؤكد بذلك سيطرة الكاتب وحضوره الدائم المستقل الفريد . فليس همه الرئيسي أن يقدم القصة فقط ، ويتركها وحدها تفضي بما يريد ان يقول ، وأن يتخفى خلف البطل ويتركه ليسرد حكايته بضمير المتكلم أو يتوحد به فيتقمص دوره . ولكنه ـ الكاتب ـ يريد ان يحقق وجوده الفريد . وان يراقب ببراعة تقيد حتى ادق دقائق خلجات بطله وافكاره ورؤاه . مستعرضا خلال هذه المراقبة الدقيقة عضلاته وقدراته الفائقة العظمة (!!؟) كما يعتقد . (راجع التقاطه الشديد الدقة ص ٢٢١ لرؤية العين المغمضة تحت الثريات التي تريق ضوءها السخي) . والتي توقعه رغبته في اظهارها في براثن الاستطراد وراء الجزئيات المتناهية الصغر والتي لا تخدم في كثير من الاحيان مجريات الامور في القصة . ولذلك نجد انه برغم باطنية اغلب الاقاصيص واحتفائها بعالم الشخصية الداخلي ، انها مروية دائما بضمير الغائب حتى يتاح للكاتب ان يقدم شرائح باطنية لاكثر من شخصية واحدة في آن ، يؤكد عبرها مقدرته الفائقة على اسر اكبر قدر من الجزئيات . وحتى يتاح له اصطياد اكبر قدر من هذه الجزئيات المتناهية الدقة سواء على صعيدي الحدث أو الشعور . فانه يعمد فينا الى ان يغمر الاقصوصة بحالة من الحضور الدائمة ولذلك لم يكتب اي من اقاصيصه بصيغة الماضي « فرواية الحاضر بصيغة الماضي نوع من التصنع ، وخلق لعالم غريب وجميل ومرعب ومتحجر في آن » كما يقول سارتر . فهو لا يريد ابدا ان يقدم شرائح عالم مضى . ويضايقه ان نعتقد بأن عالمه قد غاب في دساتين الزمن او تدثر للحظة بملاحفه السميكة .

ومع ذلك نجد انه برغم رواية اغلب بل كل الاقاصيص بضمير الغائب دائما ، فان الافعال الغالبة على السرد القصصي هي الافعال المضارعة . وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام ، خاصة وان سيادة الفعل الماضي ترافق عادة رواية الاقصوصة بضمير الغائب . وغلبة الفعل المضارع على السرد هنا ليست مجرد رغبة من الكاتب في مخالفة العرف الفني الشائع . ولكنها ضرورة فنية تتطلبها المزاوجة بين انفصالية الفنان عن العمل واحتفاظه باستقلاليته وتعاليه عليه معا وبين رغبته في تجسيد الموقف في حضور دائم متوتر بالحياة مشحون بالحركة . ومن هنا يتزايد استعمال الافعال المضارعة لاضفاء نوع من الحضور التجسيدي الدائم على الحدث والموقف وانفعالات الشخصية وتصرفاتها. الى الحد الذي يرصف معه ثلاثة افعال مضارعة او اربعة في توال مستمر ـ تتكرر هذه الظاهرة مرارا في كل القصص ـ رغبة في تجسيد حضوري كامل للموقف المقدم .. ونستطيع باحصاء بسيط ان ندرك الى أي مدى يكثر الكاتب من استعمال الافعال المضارعة برغم رواية الاحداث بضمير الغائب ، والتي تهب اكثاره لاستعمال هذه الافعال المضارعة نوعا من التعمد المقصود ، اذا علمنا ان عدد الافعال المضارعة هي اربعة اخماس الافعال المستعملة في الاقصوصة بينما تقبع الافعال الماضية في الخمس الباقي . ففي قصة (حيطان عالية) مثلا واحد وثمانون فعلا ماضيا مقابل ثلثماية وثمانية وعشرين فعلا مضارعا في الاقصوصة نفسها . وتتحقق النسبة نفسها تقريبا في اغلب اقاصيصه . ولا يقف به الامر عند هذا الحد ، بل يتجاوزه الى الاكثار من استعمال المصادر المؤولة والافعال ذات الحركات المبطوطة التي تستغرق اطول

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروى	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● امام الباب المغلق	» »	٢٠٠
● لم يبق الا الاعتراف	لاحمد ع. حجازي	٢٥٠
● ديوان ابراهيم	لابراهيم طوقان	٣٥٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الناس في بلادي	لصلاح عبد الصبور	٢٠٠
● مأساة الحلاج	لصلاح عبد الصبور	٣٠٠
● فلسطين في القلب	لعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠

فترة زمنية ممكنة . فهو لا يستعمل تبقى وتهدف وترضى مثلا ولكنه مغرم ب تستبقى وتستكمل وتستهدف وتسترضى .. الخ .. فهنا ليس الفعل المضارع وحده ، ولكن مضافا اليه الحضور الطويل الآني والارادة معا .

وكثرة الافعال المضارعة ، والولع بالغياب داخل مسارب الجزئيات المتناهية الصغر ، والجري وراء الاستقصاءات اللغوية والتجريدات المتناهية الصغر ، والجري وراء الاستقصاءات اللغوية والتجريدات ادوار . حيث يتحول ذلك الاحساس بالتوتر والتردد الساري في الاغوار ، القابضة كلاباته على كل اطراف اللاوعي الى اجراء حياتي معاش . وكأني به يريد ان يجسد صيحة سارتر في (الوجود والعدم) .. اننا قلق .. بجعله القلق حالة الوجود الانساني الاثيرة ، الى الحد الذي يلوح فيه أي وجود انساني دونما قلق في عالمه القصصي وجودا شاحبا لا قيمة له . وهو يسير في هذه الجزئية بالذات في ركاب الفلاسفة الوجوديين الذين يرون ان القلق هو الحالة الحقيقية للواقع الانساني . ذلك الواقع الذي يهدف الفن كما يهدف التفكير الفلسفي الى درسه وكشف النقاب عن ملامحه الغامضة . خاصة وان القلق والتشوف الظامىء الى الاستقرار ، والتقلب في فيافي الاسئلة الملحاحة من اكثر المناخات قدرة على الكشف عن جوهر الوجود الانساني المتوتر دوما ، التواق ابدا الى الهدوء والامان .

واخيرا فاننا قد نأخذ على ادوار لجوءه الدائم الى هذه النماذج البشرية القلقة المحبطة . واعتقاده بأن انسان اليوم يحس ـ كما تقول سيمون دو بفوار ـ بانه اكثر تفاهة من حشرة في حضن الجماعية الكبيرة التي تختلط حدودها بحدود الارض . لكنه ـ رغبة منه في تقديم تصوره لتوتر الحياة الدائم وقلقها ـ مضطر الى هذا . فليس اكثر دلالة على تدفق الحياة وحيويتها من هذه النماذج التي تنظر اليها من وراء اسوار غليظة . فتقدم الحياة بكل طزاجتها مضافا اليها تشوقها الظامىء لها . وهو لا يقدم لنا تشابك الظروف الانسانية وتعقيدها بالصورة التي تبرر اختناق هذه النماذج في اطارها . ولكنه يقدم لنا اختناقات عقلية معملية من خلال ظروف شديدة البساطة ، ولا اقول الافتعال .. نقل مدرس أو مرض ابنة او ام او موت زوج او غيرها من الاحداث المألوفة والمتناهية البساطة والتي لا يمكن ابدا ـ في امتداداتها الصحية ـ ان تورث هذا الاختناق . غير ن المنطق السائد في عالم الرغبات المحبطة ليس هو المنطق الصحي بحال من الاحوال . ولكنه المنطق الذي تلح عبره الهموم الصغيرة على الانسان بصورة متناهية الكبر وشديدة الازعاج . وهموم هذا الانسان تلح عليه لدرجة انها تتجسد امامه عارية في حضور دائم صارخ غير مبرر . فنجد ان ابنة بطل (حيطان عالية) المريضة تقتحم عليه خلوته الهروبية ليتجسد ـ عبر معادلة عقلية شديدة الغموض ـ حضور شبحها المريض وسط المقهى عاريا ومثيرا للتقزز . كما تمد اخت بطل (أمام البحر) المتوفاة يدها له من أعماق الزمن وتشده الى اعماق عالمها . وهذا التجسيد الحي لهموم هذا الانسان الداخلية ليس الا تعبيرا عن قوة العالم الخارجي وسيطرته ، ذلك العالم الذي يهمله ادوار اول الامر خلال اهتمامه بالاغوار النفسية لبطله ، والذي ما يلبث ان يتنفس تحت السطح ويتمطى ، ثم يستيقظ قويا عملاقا موفور الصحة واضح المعالم ليفرض سيطرته على بعض مجريات الامور في القصة .

ـ التتمة في العدد القادم ـ

القاهرة

صبري حافظ

الكواكبي

المفكر الثائر

إسهام في دراسة الإسلام الحديث

عرف الاسلام خلال قرون نوعا من الجمود القاتل تحول فيها الى عقيدة منكمشة على ذاتها ، ضيقة الافق .. حتى ظن ان الطاقة الدينامية في الاسلام قد استنفدت ، وانه بالتالي بات مقصرا عن مجاراة التطورات العصرية في مختلف الميادين .. الى أن ظهر اول رد فعل عصري في جزيرة العرب على يد محمد بن عبد الوهاب ، ثم تلته ردود الفعل في شتى الاقطار الاسلامية : الحركة السنوسية في ليبيا ، والحركة المهدية في السودان ، وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده .

في هذا الجو الفكري العنيف نشأ الكواكبي مفكرا ثوريا حرا ، وجاب البلاد العربية الاسلامية باحثا ومنقبا ، ثم وضع لنا كتابيه اللذين ركز فيهما ثورته على الجمود وآراءه الاصلاحية : أم القرى ، وطبائع الاستبداد .

وهذا الكتاب الذي الفه المستشرق الفرنسي نوربير تابيير وترجمه علي سلامة دراسة قيمة لآراء هذا المفكر الاصلاحي الكبير ونقد نزيه لها . وهو بحق مساهمة فعالة ونموذج يحتذى في سبيل دراسة مفكري الاصلاح في العصر الحديث دراسة حرة بناءة .

ويتضمن الكتاب تلخيصا وافيا لكتابي الكواكبي الشهيرين : أم القرى وطبائع الاستبداد .

صدر حديثا — **٣٥٠ ق.ل**